النخبة الفاشلة ونكبة الاحتلال السعودي للأحساء والقطيف

د. حامد العطية

عندما احتل عبد العزيز بن سعود الأحساء والقطيف في 1913م كان منصور الجمعة، الزعيم والباشا القطيفي، مدفوناً في مقبرة النجف في العراق، لكن ما أنجزه وما أهمله من جهد قيادي في حياته مهد الطريق للمحتل، وأمكنه من اخضاع بقية مناطق الجزيرة. شركاء الجمعة في ضياع الأحساء والقطيف وقيام الدولة السعودية الاستعمارية الثالثة نخبة من سكان المنطقة، ضمت كبار مالكي بساتين النخيل والتجار ومعظم رجال الدين. لم يجتمع هؤلاء لتسهيل مهمة المحتل، وبالتأكيد لم يتمنوا لأنفسهم وأتباعهم الخضوع مرة أخرى لحاكم وهابي، يصنفهم روافض مشركين، لكنهم بالفعل ساعدوا وبدون قصد عبد العزيز بن سعود على تأسيس مملكته السلالية الاستعمارية وما اقترفته من كوارث في العالمين الإسلامي والعربي.

كان الأحساء والقطيف سنجقاً عثمانياً، يديره متصرف مرتبط هرمياً بوالي البصرة، يساعده عدد من الموظفين الإداريين، وترابط فيه قوة صغيرة من جنود الجيش العثماني، لم يتجاوز عديدهم أربعمائة جندي في 1913[1]. لم تختلف أحوال المنطقة عن باقي مستعمرات العثمانيين العربية، بل لعلها كانت من الأسوأ. إذ تجلت كل مظاهر الاستغلال الاستعماري والتفسخ الإمبراطوري فيها. نخر الفساد جهازها الإداري واستغل الحكام المحليون والقضاة مناصبهم لجمع الثروات، وتفشت الرشوة بين الموظفين، وتقاعست القوات العسكرية عن حفظ الأمن وحماية السكان، فلا خدمات صحية أو تعليمية أو إنمائية تستحق الذكر.

كان من الممكن أن تكون الأحساء والقطيف الأكثر ازدهاراً وقوة ومنعة في الجزيرة. معظم سكان المنطقة حضريون، أراضيها خصبة، ومياهها العذبة وفيرة، تتخللها بساتين النخيل والحقول الزراعية، حتى أن بستاناً واحداً في القطيف احتوى على مليون ونصف مليون نخلة[2]، وكان فائض محاصيلها مؤونة لسكان نجد، وموانئها منافذ الجزيرة للتجارة مع العالم، وموقعها الجغرافي استراتيجي، لذلك كانت محط أطماع جاراتها من العرب والمستعمرين، وكان لزعمائها ونخبها اسهامات متواضعة في تطويرها، إذ ولوا اهتمامهم تثمير ممتلكاتهم وتجارتهم وتكديس ثرواتهم، وتصدقوا

بالقليل على فقرائهم، وسلموا الحقوق الشرعية لرجال الدين الذين كعادتهم نقلوها إلى مراجعهم البعيدين.

في مستهل القرن العشرين تزاحمت ثلاث قوى استعمارية على السيطرة في وسط وشرق الجزيرة العربية، العثمانيون والبريطانيون والسعوديون، كان الاستعمار العثماني في مرحلة أفول وبعد أقل من عشرين عاماً سيزول، بينما هيمنت السفن الحربية البريطانية على مياه وموانئ الخليج ووطدوا نفوذهم في الساحل الغربي للخليج، فأبرموا معاهدات حماية مع شيوخ البحرين (1880م) والكويت (1899م)[3]، وبسطوا سيطرتهم على ساحل عمان (1892م)، ووقفوا بوجه محاولات العثمانيين فرض سيطرة كاملة على مشيخة قطر، كما حموها من أطماع آل خليفة، وفي وسط الجزيرة سيحتل عبد العزيز بن سعود الرياض في 1902م لتكون قاعدة لتحقيق أطماعه الاستعمارية.

في تلك المرحلة المصيرية استأثر باهتمام زعماء وسكان القطيف والأحساء هجمات قبائل العجمان وآل مرة والهواجر وغيرهم، حيث طالت أعمال البدو العدائية كل مظاهر الحياة في المنطقة، وفقد السكان الشعور بالأمن حتى في بيوتهم وأماكن عملهم، واضطروا إلى هجر بساتينهم البعيدة عن الأماكن المأهولة، ولم تسلم قوافلهم التجارية من النهب والسلب، ولم تردع الحاميات العثمانية الصغيرة البدو، وجرأهم تقاعسها وتخاذلها على تكرار وتوسيع هجماتهم. كانت واقعة (الشربة) في 1908م نتيجة حتمية للجفاء والقطيعة بين الطرفين، أوقد شرارتها خلاف تافه بين بائع للماء وبدوي من العجمان تفاقم إلى معركة بين قبائل البدو والسكان، أدت إلى مقتل العديد، واتلاف المزارع والبساتين والمساكن. وكعادتها أخفقت القوة العثمانية المكلفة بحماية المنطقة في وقف القتال واعتداءات البدو، فاضطر الزعماء ورجال الدين للاستغاثة بكبار المسؤولين في الدولة. وبعد تلكؤ غير مبرر أرسلت قوة بقيادة طالب النقيب، تمكنت من دحر القبائل البدوية وإعادة الاستقرار للمنطقة.

أخلص زعماء الأحساء والقطيف الشيعة الولاء للدولة العثمانية، فرفضوا ابرام معاهدة حماية مع الحكومة البريطانية أسوة ببقية مشايخ الخليج، رفضوها مرتين في 1899م و1905م وفي المرة الثالثة في 1907م عرض برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج على منصور الجمعة القطيفي مساعدته في بناء كيان سياسي من دون

معاهدة فرده خائباً، فكافأته الحكومة العثمانية بلقب باشا، وعندما تجرأ البريطانيون على نصب علمهم فوق أرض القطيف في 1908م أنزله بعض السكان ومزقوه، وتلك كانت نهاية الاهتمام البريطاني بمصير المنطقة وسكانها، فعندما استنجد بهم عبد الحسين الجمعة أخ منصور وغيره بعد الاحتلال السعودي لم يستجيبوا لهم.

لا تنم قرارات وأفعال النخبة الأحسائية والقطيفية عن وعي لما دار حولهم من أحداث وتطورات، ولا تعكس قلقاً مما قد يخبئه لهم الصراع الدائر في الجزيرة والخليج من تحديات وأخطار جسام، فهم كما يبدو وضعوا كل ثقتهم بحكامهم العثمانيين وقدرتهم على حمياتهم من الأخطار والأطماع المحدقة بهم، ولم يكن العثمانيون جديرين بهذه الثقة معظم الأحيان، أرهقوا السكان بالضرائب الباهظة[4]، وفشلوا في ترويض قبائل البدو المجاورة، إذ خفضوا الرواتب أو الصرر المقررة لزعمائهم اتقاءً لشرورهم، فازدادت شراسة غزواتهم، حتى أن أحد أشقياء البدو والمدعو ابن رزين عمد إلى خطف أبناء التجار والأثرياء ومطالبة عوائلهم بفدية مقابل اطلاق سرحهم[5]، ودفع انعدام الأمن والضرائب الكثيرين للهجرة إلى البحرين والعراق وإيران. تبدو مبررات تمسك أهالي الأحساء والقطيف بالحكم العثماني واهية إن لم تكن شبه معدومة. وليس خافياً كره سلاطين وولاة العثمانيين لطائفتهم المذهبية، وأوضح الأدلة على ذلك مذبحة مدينة كربلاء في 1843 م التي لم تضاهيها في وحشيتها سوى مجزرة الوهابيين في المدينة ذاتها في بداية القرن التاسع عشر، وهم تركوا المدينة دون سور أو حماية، ولم تتحرك النجدة العثمانية إلا بعد مغادرة الغزاة السعوديين للمدينة محملين بكنوز من الغنائم، وفي 1875م ارتكب الجنود العثمانيون مجزرة رهيبة في الأحساء، وحتى القائد العثماني طالب النقيب الذي أرسله العثمانيون لنجدة سكان الأحساء والقطيف من غارات البدو خرب قصور زعيمهم منصور الجمعة وأستولى على شطر من أمواله وغلة بساتينه لرفضه دفع رشوة[6].

في العقد الأول من القرن العشرين تدهورت أحوال المنطقة، فقد استبد الوهن بالدولة العثمانية وتكررت هزائمها وترسخ التواجد الاستعمار البريطاني في المنطقة، وعاد الخطر السعودي الوهابي، واشتدت هجمات البدو. اختارت مشايخ الخليج الاحتماء بالاستعمار البريطاني، ويحمد زعماء الأحساء والقطيف على رفضهم الخضوع للاحتلال، سواءً كان تمسكاً بالدين أم ولاءً للعثمانيين، وحتى العرض البريطاني بمساعدتهم لتكوين كيان سياسي يستبطن درجة من القبول بنفوذهم، لكن

من المفجع أن ذلك المقترح المشبوه لم يدفعهم للتفكير بالحاجة الملحة لذلك، فبينما كان للكويت والبحرين وقطر كيانات سياسية-إدارية بدائية بإمرة محلية تفردت منطقة الأحساء والقطيف بكونها تدار من قبل موظفين عثمانيين، وقد أبدت الإدارة العثمانية رغبتها في تعيين منصور الجمعة والياً عليها، فقد كان جل اهتمامها الولاء الشكلي للدولة وجباية الضرائب، لكن منصور الجمعة رفض، فأهدر فرصة ذهبية لبناء كيان سياسي-إداري، واكتساب مقومات القوة والمنعة الكافية لحماية منطقته من القبائل البدوية وردع أو حتى صد الغزو السعودي الوهابي المنتظر، تكون من أولوياته التفاهم مع القبائل البدوية حول علاقة طويلة الأمد على أساس المصالح المتبادلة، فتتوقف فيها الغزوات مقابل حصول القبائل على أموال ومؤون كافية، ويمكن تطوير هذا الميثاق إلى حلف تشارك بموجبه القبائل في الدفاع عن المنطقة، وسيتيح السلام والاستقرار العودة إلى زراعة الأراضي المهجورة نتيجة الغزوات، مما سيرفع من دخل الملاكين والفلاحين، ويقلل من أعداد المهاجرين، ويوفر مورداً إضافياً للإدارة المحلية. في هذه الأثناء سيلتفت الوالي أو الحاكم المحلي الواعي إلى تحصين المنطقة من خلال ترميم الأسوار البالية للمدن والقرى وتشييد أسواراً جديدة وبناء تحصينات وتسليح السكان بأحدث الأسلحة وتدريبهم على استعمالها، كما سيتولى ترتيب علاقات المنطقة مع جوارها بما يعزز مكانتها والاعتراف بشرعية إدارتها، ومن متطلبات تنفيذ هذا المشروع الاستراتيجي للمنطقة اقتناع سكانها بجدواه، واستعداد مثقفيهم ورجال دينهم لتحمل المسؤولية الرئيسية في تحقيق ذلك، كما يترتب على أثريائها تحمل كلفته.

لو للتمني إن كان المأمول في الحاضر أو المستقبل، لكنها تكون للتحسر لو كانت متعلقة بالماضي، فلا تنفع الحسرات لكنها قد تكون مفيدة لأخذ الدروس والعبر. لم يتحقق شيء من هذه التمنيات. كان الاستحواذ على الأحساء والقطيف حاجة مصيرية بالنسبة لعبد العزيز بن سعود، إذ توفر وارداً كبيراً من الأموال والمؤن، ومن دونهما لن يتمكن من استكمال سيطرته على بقية مناطق الجزيرة، ولولاهما لتقوضت سلطته حتى في وسط نجد نتيجة افلاسه الوشيك، ولدفنت أحلامه بتكوين دولة سعودية ثالثة، وتلك حقيقة لم تخف على زعماء ورجال دين الأحساء والقطيف.

انتظر ابن سعود حتى بدت ملامح انهيار الدولة العثمانية في 1913م لينفذ مطامعه. نجحت قوة صغيرة من أتباعه باحتلال الهفوف عاصمة الأحساء بمساعدة مندسين

نجديين، وبعد أيام استسلمت القطيف، وكان لزعماء ورجال الدين فيهما دوراً مثبطاً، إذ لم يبدوا مقاومة تستحق الذكر، كما أنهم طلبوا من الحامية العثمانية، والتي كان تعدادها يفوق القوة الوهابية الاستسلام، وحرروا لقائدها كتاباً بذلك يخليه من المسؤولية، وهكذا توفر لابن سعود الإمكانات المالية والمادية والبشرية للقضاء على إمارة حائل وعلى الحكومة الهاشمية في الحجاز والسيطرة على مكة المكرمة والمدينة المنورة وتفاصيل البقية كما يقال في كتب التاريخ وأحداث الحاضر وشهادات المعاصرين.

استقبل وجهاء ورجال دين المنطقة عبد العزيز بالود والترحاب، وعاهدوه على الولاء المطلق، متمنين عليه السماح لهم بإقامة طقوسهم المذهبية، وكان للشيخين الشيعيين موسى بو خمسين في الأحساء وعلي بن حسن علي الخنيزي في القطيف وثلة من الوجهاء دوراً كبيراً في حض الأهالي على الامتناع عن مقاومة الوهابيين، فكافأ ابن سعود الخنيزي بتعيينه قاضياً عاماً في المنطقة، وثبت آخرين مثل علي بن أخوان ويوسف بن سويلم في وظائفهم السابقة تحت الإدارة العثمانية[7]، فيما سارعت قلة منهم للهجرة خوفاً على حياتهم. لم يمض وقت طويل قبل أن ينكث عبد العزيز بوعوده لهم، فتحجج بضغوط الأخوان ليرسل الوهابيين المتشددين أو المطاوعة لإجبار السكان على التخلي عن عقائدهم وشعائرهم، ونكب آل جمعة إذ أمر بقتل عبد الحسين الجمعة عمدة عائلته بعد وفاة أخيه الزعيم منصور، واستولى على كل ثروتهم وأملاكهم، وكلف أشد أقاربه غلظة وقسوة ابن جلوي بالإمارة عليهم، وسعى إلى تغيير ديمغرافية المنطقة لجعلهم أقلية، وفرض عليهم الضرائب الباهظة فنفذ صبر الأهالي وحملوا السلاح لقتال الوهابيين، لكن رجل الدين والقاضي الخنيزي وأمثاله سارعوا لوأد الثورة باعتبارها قتالاً محرماً لمسلمين ووخيمة العواقب.

منذ احتلال عبد العزيز ابن سعود للمنطقة كانت حصة سكانها من الاضطهاد الأكبر ومن عوائد النفط المكتشف في منطقتهم الأقل. بعد 70 عاماً من الاحتلال زرت المنطقة في رحلة عمل، فاشتكى لي مدراء بلدياتها من حرمان السكان من أبسط الخدمات حتى أنهم مضطرون لشرب مياه الآبار الملوثة، وشاهدت بعيني بيوتهم الطينية، وتجرأ البعض على التنديد بأنواع الحرمان والتمييز في المعاملة، وفي بداية هذا القرن حرص شاب من الأحساء على اخفاء مذهبه عن زملائه في العمل، وصارحني بأنه يشعر بالضعة لاضطراره لذلك.

لو لم يستولي عبد العزيز بن سعود على الأحساء والقطيف فعلى الأغلب لما نشأت دولة سعودية، ولما اعتدى آل سعود وحلفاؤهم على اليمن، ولا قامت الحرب العراقية الإيرانية، ولا غزا العراق الكويت، ولما احتلت القوات الأمريكية العراق وأفغانستان، ولما عاثوا في البلاد العربية والإسلامية الفساد والخراب، ومن دون آل سعود ومؤسستهم الدينية الوهابية لما نشأت المنظمات الإرهابية كالقاعدة وداعش وطالبان والنصرة والشباب وبوكو حرام وغيرهم، ونتيجة لهذا الجهد التخريبي الضخم ضعفت الدول العربية والإسلامية وقوي أعداؤها وأولهم الكيان الصهيوني، بل لا مبالغة في الاستنتاج بأنه بدون السعودية وسياساتها في توهين العمل الفلسطيني المقاوم من قبل وبعد تأسيس الكيان الغاصب لكان ممكناً القضاء على الاستيطان الصهيوني.

الحفاظ على النفس غاية عظمى للعقيدة، فلا عقيدة بدون أنفس تعمل بها، وبديهياً لا قومية بدون قوم أحياء، وعندما وصلت أقوام لحد الفناء اندرس تراثها وطمست هويتها وانقرضت لغتها وعقائدها، والأعراف القبلية قديماً وقواعد السلوك المتحضرة حديثاً تضع البقاء أعلى سلم حاجات البشر. عندما تواجه الجماعة تهديداً وجودياً يتحمل زعماؤها مسؤولية عظمى، فالهروب معناه التشرد وضياع الهوية، والاستسلام لا يقل سوءاً وخزياً عن ذلك، فليس أمامهم سوى الصمود والاستعداد المبكر لذلك، لكن زعماء الأحساء والقطيف من رجال دين وغيرهم اختاروا الاستسلام فدفعوا ثمناً باهظاً، وتحمل العرب والمسلمون معهم النتائج الكارثية لذلك أيضاً، أتساءل إن كان بعد ذلك الاستسلام المذل كيف ساغ لهم ترديد شعار هيهات من الذلة وتذكر الحكمة الخالدة: ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا.

---

[1] حمزة جعفر الحسن، 1999. **الشيعة في المملكة العربية السعودية**، الجزء الأول. بيروت: دار الساقي، ص 199.

[2] رأفت غنيمي الشيخ وناجي عبد الباسط هدهود ومحمود رمضان، 2014. **استراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي**. القاهرة: مركز الحضارة العربية.

[3] James Onley , 2007. **The Arabian Frontier of THE British Raj: Merchants, Rulers, and the British in the Nineteenth-Century Gulf.** Oxford: Oxford University Press, p. 247 and p. 252.

[4] S.M. Zwemer, 1900. **Arabia The Cradle of Islam**. New York: Fleming H. Revell Company, p. 113.

[5] سهيل صابان، 2009. **من وثائق الأحساء في الأرشيف العثماني**. الأحساء: نادي الإحساء الأدبي، ص 61.

[6] محمد موسى القريني، **الصراع بين منصور الجمعة وطالب النقيب**. مجلة الواحة، العدد الصادر في 17/10/ 2007م.

[7] محمد سعيد المسلم، **ساحل الذهب الأسود: دراسة تاريخية إنسانية لمنطقة الخليج العربي.** بيروت: مكتبة دار الحياة، ص 194.